الحياة والاحلام

كتب المسيو كبل ملنان مقالة مسهبة في مجلة العالمين الفرنسوية ذهب فيها الى ان حلم الانسان قد يكون يقظة ويقظته حلماً وان الادلة التي تقام على ان اليقظة امر حقيقي والحلم امر وهمي يمكن ان تقام على ان الحلم امر حقيقي واليقظة امر وهمي . وبدأ ادلته بقوله ان المشابهة كبيرة جداً بين ما نشعر به في اليقظة وما نشعر به في الاحلام فاننا نرى في الاحلام الناس والاشياح مثلما نراهم ونراها في اليقظة تماماً ونشعر فيها باللذة والالم بل قد يكون ألمنا ونحن نيام اشد منه ونحن مستيقظون كما في الكابوس فان من يصاب به يشعر بضيق شديد ويحس كأن حبل الحياة كاد ينصرم فيضيق صدره لذلك ويأس من النجاة وهذا شأننا في كل ما نشعر به ليلاً من لذة او ألم فانه يؤثر في انفسنا حينئذٍ كما يؤثر فيها لو كنا مستيقظين. ومع ذلك ندّعي ان ما نشعر به في اليقظة حقيقي وما نشعر به في الاحلام وهمي وان حالتنا في اليقظة هي الحالة الصحيحة واما حالتنا في الاحلام فكاذبة لا يعوّل عليها ونضحك على انفسنا حينما نستيقظ ونرى اننا كنا ونحن نيام مصدقين ما نحلم به . والراي الشائع المعوّل عليه في الاحلام مبني على ان شعورنا في اليقظة هو الشعور الحقيقي الصادق واما شعورنا في المنام فوهمي كاذب اوهو صور قديمة في النفس تنبّه على غير قاعدة ولا قياس فنشعر بها مختلة مضطربة على غير حقيقتها . قالوا وما يكون من عدم الانسجام في الاحلام سببه ان القوى المدركة كالارادة والحاكمة والمتصرفة تكون نائمة فيطلق العنان للخيال وائتلاف الافكار . وان اعتقادنا ونحن نيام بصحة ما نحلم به ولو كان وهمياً سببه ان الصورة التي لا تقاومها صورة اوضح منها تظهر للنفس حقيقية ولو كانت وهمية كما يرى المرء صورته في مرآة كبيرة فيظنها اولاً حقيقية ثم يرى بروز المرآة فيعلم حالاً ان الصورة الاولى وهمية . وعليه بحسب ما نشعر به في الاحلام حقيقياً ونحن نيام لان نوم مشاعرنا يمنعنا من مقابلته بما نشعر به حقيقة في اليقظة ونوم قوانا العقلية يمنعنا من النظر فيه والحكم على فساده فنصدقه وهو كاذب ونراه معقولاً وهو غير معقول . وعندي ان الفرق بين ما نشعر به في النوم وما نشعر به في اليقظة وجعل الاول وهماً مختلطاً والثاني حقيقة منتظمة تحكّم محض وليس الفرق بين الشعور الاول والشعور الثاني كبيراً كما يزعمون

ويقول الاكثرون انهم يعلمون صحة ما يشعرون به وهم مستيقظون لان مشاعرهم تشهد بذلك فانهم يرون شجرة فيحكمون بصحة ما يرون لانه يمكنهم ان يذهبوا اليها ويلمسوها بايديهم

ويشمون وردة ويمكنهم ان يروها ويلمسوها واما في الاحلام فلا يمكنهم ان يثبتوا صحة ما يرون بشعر آخر من المشاعر . لكني ارى هذا الفرق وهميًّا لان مشاعرنا يؤيد بعضها بعضًا في الحلم كما في اليقظة فاننا اذا حلمنا بشيء نراهُ حلمنا ايضًا اننا لمسهُ وسمع صوتهُ واذا حلمتُ انني قابلت صديقًا من اصدقائي فقد احلم ايضًا انني صافحتهُ وسمعت حديثهُ ولذلك فالمشابهة تامة بين مدركاتنا في اليقظة وفي المنام

ويذكرون فرقًا آخر بين مدركات اليقظة ومدركات الاحلام وهو ان ما ندركهُ في اليقظة نجد غيرنا يدركهُ مثلنا فاذا رأيتُ شجرة رآها كل الذين معي واذا شعرتُ بها باللمس شعروا هم بها ايضًا باللمس واذا سمعتُ حفيف اوراقها سمعوهُ هم ايضًا فما ندركهُ في اليقظة يتحقق لنا صدقهُ بادراك غيرنا لهُ ايضًا اما ما ندركهُ في الاحلام فلا يدركهُ احد معنا

الاَّ ان هذا الفرق ليس اصح من الفرق الاول فاننا نحلم ونحن نيام اننا نخاطب غيرنا فنسمعهُ ويسمعنا ونشاهد بعض المناظر سوية ونعتقد ونحن نيام ان الذين نراهم في احلامنا يشعرون كما نشعر على مثل ما نعتقد في اليقظة ثم اذا استيقظنا وجدنا ان ما كنَّا نشعر بهِ في المنام ليس صحيحًا لا يثبت ذلك عدم صحتهِ لاننا كنا نشعر بهِ صحيحًا ونحن نيام وقد نعود ونشعر بهِ صحيحًا اذا نمنا ايضًا . وما ادرانا ان حياة اليقظة التي نحياها الآن ليست حلمًا واننا سنستيقظ من هذا الحلم يومًا ما فنجد ان كل ما كنا نشعر بهِ فيها انما هو وهمٌ في وهمٍ . ثم ان اتفاق الشهود على امر ليس دليلاً على صحتهِ لان الناس كلهم خاضعون لسلطان الوهم

ونأتي الآن الى فرق آخر بين الحلم واليقظة يقال انهُ اكبر فرق بينهما وهو اختباط الاحلام وارتباكها وعدم انسجامها فيلي بعضها بعضًا على غير قانون ولا نظام — ينتقل بها الحالم من بلاد الى اخرى باسرع من لمح البصر بل ينتقل من الطفولية الى الشيخوخة في طرفة عين كأن لا فاصل بينهما وتخالف كل نواميس العقل فتحدث مسببات بلا اسباب ومعلولات من غير علل وتجتمع المتناقضات وتتحقق المستحيلات ويرى المرء نفسهُ في مكانين معًا في وقت واحد . وقد استشهد مرةً للفيلسوف دلبوف ان يكتب جملة من كتاب كان يقرأهُ في حلمهِ ويحبهُ طالبًا منهُ العبارة وهي هذه " ارتقى الرجل بواسطة المرأة ولما فصلتهُ الانحرافات تراهُ يقدم ادلة يفصلها التحليل من الطبيعة الثلاثية الى طريق الارتقاء "

فلننظر هل هذا الفرق اصحُّ من الفروق السابقة . فان بعض الاحلام يكون منتظمًا منسجمًا معقولاً في المنام وفي اليقظة ايضًا والبعض الآخر وهو الذي لا نراهُ في اليقظة منسجمًا معقولاً نراهُ ونحن نحلم بهِ منسجمًا معقولاً فلا نستغربهُ حينئذٍ ولا نندهش من مخالفتهِ

لاحكام العقل . فنشعر اننا في بلدين في وقت واحد ولا نستغرب ذلك ونرى واحداً يتغير من شخص الى آخر فلا نقف وقفة المندهش كأن تغيره امرٌ مألوف . والاقوال التي لا نفهم لها معنى اذا استيقظنا نجدها صريحة فصيحة ونحن نعلم بها . والافكار التي نراها متضاربة متناقضة ونحن في اليقظة نراها منسجمة تمام الانسجام ونحن في الحلم . فكل ما يشعر به الحالم في حلمه يجده مألوفاً حينئذٍ كما يجد المستيقظ ما يشعر به في يقظته . نعم انهُ اذا استيقظ وجد ما كان يحلم به غير مألوف لانهُ يقابلهُ بما يشعر به في اليقظة ولكن ما ادرانا ان اليقظة ليست حالاً نستيقظ منهُ يوماً ما فنجد ما ندركهُ فيها مستحيلاً بالنسبة الى الحالة الثانية التي ننتقل اليها

وعندهم فرق آخر بين الحلم واليقظة وهو ان مدركات اليقظة متصل بعضها ببعض كأنها اجزاء من شيء واحد . واما الاحلام فمنفصل بعضها عن بعض كأن حياة المرء فيها اجزاء متقطعة لا التحام بينها ولا اتصال فحياتي اليوم متصلة بحياتي امس وبحياتي في الغد وفصل النوم بينها انما هو توقُّف وقتيٌّ . فابتدئُ في الصباح من الحد الذي وصلتُ اليهِ في المساء واجد نفسي في الحالة التي كنتُ فيها واتصل افكاري امس بافكاري اليوم . اما الاحلام فمنفصل بعضها عن بعض وما نحلم بهِ اليوم لا علاقة لهُ بما حلمنا بهِ امس وما قبلهُ . واذا ذهبت لانام اليوم فانا غير واثق انني ارى في حلمي الليلة الحاضر التي رأيتها في حلمي الماضي بل قد اكون في احط الحالات واسرها فانتقل بغتةً الى امرّ حالات الكابوس . فلا انسجام في الاحلام نفسها ولا انسجام في نسبتها بعضها الى بعض . وهذا الذي دعا بسكال الى ان قال اننا لو حلمنا الحلم الواحد ليلة بعد ليلة لأثّرت فينا الاحلام كما تؤثر مدركات اليقظة فاذا حلم صانع اثنتي عشرة ليلة متوالية انهُ صار ملكاً مرَّ في نفسهِ على ما اظن كما يستاء ملك يحلم اثنتي عشرة ليلة متوالية انهُ صار صانعاً . ولكن اختلاف الاحلام وتناقض بعضها يجعلنا نتأثر منها اقل مما نتأثر من مدركات اليقظة "

وعندي ان هذا الفرق ليس اصحَّ من الفروق السابقة لاننا انما نحكم بعدم اتصال الاحلام في اليقظة لا في المنام واما في المنام فنرى حياتنا الحلميَّة متصلة بعضها ببعض لا انفصال فيها ولا اشعر وانا احلم الليلة ان حلمي غير متصل بالاحلام التي سبقتهُ بل بالضد من ذلك اشعر ان الحوادث تمرُّ عليَّ وتتعاقب متصلاً بعضها ببعض واخذاً بعضها برقاب بعض . فالشعور في الحلم كالشعور في اليقظة تماماً من هذا القبيل ولا يطعن في ذلك اننا نرى الاحلام منفصلة بعضها عن بعض في اليقظة لان حياة اليقظة قد تكون احلاماً كما قدَّمنا نستيقظ منها

يوماً ما فنجدها منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال كما نجد الآن احلام المنام فيها

ويظهر من ذلك كله ان حكمنا في حقيقة الاحلام مبني على ما نشعر به بعد ان نستيقظ منها لا على ما نشعر به ونحن نحلم فنقابل حياة اليقظة ونحن فيها بحياة النوم بعد ان نخرج منها ولذلك لا يكون حكمنا عادلاً ولا صائباً . اما الفروق الاخرى التي اتخذها الفلاسفة دليلاً على فساد ما نشعر به في الاحلام كتوقف فعل الارادة وعدم انطباق مقياس الآداب في الحلم على مقياسها في اليقظة واختلاط السوابق باللواحق في الزمن وتغيُّر الاشخاص والاوصاف — كل هذه الفروق تعلل بانا نحكم انها كذلك ونحن في اليقظة لا في الحلم . وزد على ذلك ان الاحلام تكشف احياناً من اخلاق المرء ما يحاول اخفاءهُ عنه في اليقظة وترقعهُ في تجارب يتجنَّب الوقوع فيها وهو يقظان ولو كان طبعهُ ميالاً اليها ولظهر منهُ ما يضمرهُ او يخفيهِ عن عيون الناس فهي محك صادق للاخلاق وشاهد عادل على الطباع

والفرق الحقيقي بين الحلم واليقظة ان المرء يعلم وهو في اليقظة انهُ توجد حالة أُخرى ينتقل اليها وهي حالة الحلم واما اذا كان في الحلم فلا يعلم انهُ توجد لهُ حالة أُخرى وهي حالة اليقظة ولا يقابل حينئذٍ بين حالتهِ حالتئذٍ وحالتهِ يقظان بل يظن ان حياتهُ كلها حلم متصل . ويقول في نفسهِ احياناً ان ما اراهُ الآن قد يكون حلماً لا صحة لهُ ولكن هذا القول لتظي لا يؤثر في نفسهِ . وهناك فرق آخر بين الحلم واليقظة وهو اننا نستيقظ من الحلم ولكننا لا نستيقظ من اليقظة ولذلك نعتقد بصحة اليقظة وفساد الحلم

وهذان الفرقان يدلان على اختلاف بين الحلم واليقظة في المقدار لا في الحقيقة لان من ينام بالاستهواء ينتقل من حالة اليقظة الى حالة ثانية ومن هذه الى حالة ثالثة فاذا بلغ الحالة الثالثة تذكَّر ما جرى لهُ في الثانية واما اذا عاد الى الحالة الثانية لم يتذكر ما جرى لهُ في الثالثة فبين هاتين الحالتين فرق كما بين النوم واليقظة وهما من نوع واحد كما لا يخفى ولذلك يحق لنا ان نحسب النوم واليقظة حالة واحدة في النوع ولو اختلفا في الخواص

ونحن في احوالنا الحاضرة لا نستيقظ من اليقظة الى حالة ثالثة ولكن هل يمكن ان يقام دليل على انهُ ليس لنا حالة ثالثة . فان كل الاديان تقريباً مبنية على ان لنا حالة ثالثة ننتقل اليها عند الموت فلا يستحيل ان نرى في تلك الحالة من الخفة في حياتنا الحاضرة ما نراهُ في الاحلام الآن ونعجب كيف حسبنا الحياة الدنيا حقيقية وهي حلم باطل وظلٌّ زائل

بل ان بعض الناس يقتربون من تلك الحالة الثالثة احياناً وهم في قيد الحياة. وما العلم سوى اعلان عن عالم آخر غير العالم الحسي الذي نراهُ . فالنور والالوان تدلنا على وجود

الاثير الذي لا نراهُ وعلى حركات دقائقهِ التي تكاد تفوق الاحصاء . والاصوات المختلفة تدلنا على اهتزاز سريع في مواد وذا شاهدنا جسماً في اماكن مختلفة استدللنا منهُ على وجود الحركة ولا نستدلُّ من ذلك كلهِ على ان النور واللون والصوت غير موجودة بل نستدل على انهُ يوجد شيء آخر وكذلك اذا صارت لنا حواس أُخرى نكتشف لنا عالم جديد . فالعالم الطبيعي قد استيقظ بعض الاستيقاظ من سبات الحياة الدنيا ودخل حدود الحياة الأُخرى

والفلسفة نوع آخر من الاستيقاظ والفلاسفة الذين يثقون بفلسفتهم مثل افلاطون وسبنوزا قد انقطعوا عن عالم الحس ودخلوا عالم الحقيقة وهم يحسبون حياتنا هذه وهماً او صورة للحقيقة

والانسان المتعبّد يحسب الحياة الدنيا استعداداً للاخرى وداراً للامتحان وقد لا يدرك حقيقتها ولكنهُ ينتظر حياة اخرى احق منها . وانتظار الحياة الاخرى هو الذي جرَّأ الشهداء على الاستشهاد وقوّى الناس في كل العصور على تحمُّل كل انواع المشاق في سبيل معتقداتهم انتهى

هذه خلاصة ما اثبتهُ المسيو مثان وغرضهُ الاول توجيه الادلة الى الحياة الاخرى التي نحياها بعد الموت وهو غرض سديد لذاتهِ ولكنا نراهُ قد بالغ في ابطال الفروق بين ما نشعر بهِ في اليقظة والحلم واختلف ببعضها وهو من الامكانة بمكان عظيم كالفرق الثاني وهو ان ما نشعر بهِ في اليقظة نجد غيرنا يشعر بهِ ايضاً عادتنا اما ما نشعر بهِ في المنام فلا يشعر بهِ احد معنا . فاذا كنت نائماً في غرفة كبيرة فيها عشرة غيري نياماً واتفق ان قد زارني رجل ما وخاطبني في بعض الشؤون وجب ان يشعر بزيارتهِ غيري من النيام معي في تلك الغرفة ان كان بين الحلم واليقظة شيء من المشابهة ولكن ذلك لم يقع قط سيء ما نعلم الاَّ اذا كان الحلم ناتجاً عن سبب طبيعي اثَّر في النيام كلهم او بعضهم على حدّ سوى فانهم قد يحلمون حينئذٍ احلاماً متشابهة تبعاً لذلك السبب الطبيعي وهذا يخرج الاحلام عمَّا ذهب اليهِ الكاتب

ويؤخذ عليهِ ان مقالتهُ قد تدعو الى الاستخفاف بالحياة الدنيا وجعلها من قبيل الحلم الباطل والظل الزائل كما ذهب اليهِ كثيرون من الفلاسفة . وقد نبَّه الى ذلك صاحب مجلة العلم العام وقال ان افضل نصح ننصح بهِ الذين نحبهم ونسعى في خيرهم هو ان لا ينظروا الى الحياة الدنيا كحلم بل كحقيقة ليدرسوا نواميسها ويقوموا بما تفرضهُ عليهم من الفروض والواجبات . وان الاهتمام بالاحلام عقيم الاَّ اذا اريد بهِ البحث العلمي عن كيفية حدوثها وعلاقتها بالصور الذهنية التي في نفس النائم والنواحي الطبيعية التي تتعلق بهِ

اما الحياة الاخرى التي اشار اليها الكاتب فان كان الاهتمام بها يشغل المرء عن الاهتمام بمصالحهِ الدنيوية فلا يكون ذلك منطبقاً على ما اراده خالقهُ الذي اعطاهُ الحياة الدنيا ليحترم

بما اوجبهُ عليهِ فيها . وهب ان الحياة الدنيا تنقضي سريعاً فالانسان مندوب الى اطالتها وتكثير طيباتها وتقليل خبائثها وجعلها قرّة للعيون . والسعيد من ابتدأت جنتهُ في ارضهِ وانتفع الوجود بوجودهِ

نوبار باشا

وُلد في مدينة ازمير وارسل منذ نعومة اظفارهِ الى اوربا فتعلَّم وتثقف في مدارس سويسرا وباريس وجاء مصر سنة ١٨٤٢ . وهو ارمني الجنس وقد ورث عن آبائهِ واجدادهِ الارمن اخص ما اتصف بهِ من النجابة وذكاء الفؤاد وسعة الادراك ويُعدّ النظر في الامور والصبر على مضض الدهر والدوران مع الزمان

وكان محمد علي باشا الكبير والياً على مصر يومئذٍ وبوغوص بك الارمني وزيراً لهُ وكان عظيم المكانة نافذ الكلمة عندهُ وبين نوبار وبينهُ قرابة فلما جاء مصر امر محمد علي بتعيينهِ كاتم اسرار بوغوص بك واعجبهُ ذكاؤهُ ونجابتهُ وبراعتهُ في الفرنسوية والتركية التي كان يحسنها كأنها لغتهُ الارمنية فقرَّبهُ اليهِ . وكان محمد علي كثير الاعجاب بنابليون بونابرت شديد الميل الى سماع اخبارهِ والرغبة في التشبه بهِ والنسج على منوالهِ فجعل نوبار يقرأ لهُ تاريخ الثورة الفرنسوية والحكومة القنصلية والامبراطورية ويترجم ما يقرأهُ من الفرنسوية الى التركية

ويعلم القارئُ ان القراءة والترجمة على هذا النمط تنفعان في النفس وقعاً خصوصيًّا وتؤثران في السامع بعض تأثير التعليم . ولذا يظن ان نوبار كان من جملة العوامل التي حببت الى محمد علي الاقدام على العظائم واقتحام الصعاب وطموح البصر الى الفتوح تشبهاً ببونابرت فكانت عاقبة ذلك على مصر خيراً من اوجه وشرًّا من اخرى كما يشهد بهِ تاريخها اليوم

وسار نوبار مع ابرهيم باشا الى سورية والاستانة كاتماً لاسرارهِ . وخدم عباس باشا كما خدم ابرهيم باشا ومحمد علي قبلهُ فانعم عليهِ عباس باشا بالرتبة الثانية مع لقب بك وارسلهُ الى لندن في مهمة سنة ١٨٥٠ ثم عينهُ وزيراً مفوضاً في فينا سنة ١٨٥٣

ولما تولى سعيد باشا استحضرهُ وقرَّبهُ اليهِ وعيَّنهُ مديراً للسكك الحديدية سنة ١٨٥٤ فانشأ سكة الحديد التي أُبطلت الآن بين مصر القاهرة والسويس ليسهل نقل البضائع الصادرة الى الهند والواردة منها . ثم انقلب رضى سعيد باشا عنهُ الى سخط عليهِ فاعتزل المخططات السياسية حتى تولى اسمعيل باشا سنة ١٨٦٣ . فعاد الى مناصب الحكومة وارتقى فيها